٢. من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم(*)

التقاء الثقافات بين الأمم المختلفة ظاهرة معروفة سجلها التاريخ فى صفحاته الخالدة، وهذا أمر طبيعى، لأن الفكر الإنسانى يدور فى فلك واحد، وهو الإنسان نفسه، من حيث ارتباطه بالحياة، من حيث حاجياته ومطالبه، من حيث تقدمه وتطوره، من حيث نظرته إلى الحياة، وفهمه لطبيعة الوجود، من حيث ارتباطه بقوة هى أعظم من قوته، تسيطر عليه، وترسم له خطوط رسالته فى الحياة.

ولمّا فتح المسلمون هذه البلاد المتعدّدة، باسم العقيدة، وباسم الإسلام، لم يبخلوا بثقافتهم الإسلامية على البلاد التى فتحوها، فقدموا لهم من زادها الفكرى ما أنار لهم جوانب الحياة، فكرا وعقيدة، سياسة واجتماعا، أدبا وثقافة، إصلاحا وتهذيبا.

ففى بلاد الأندلس مثلا تحتل الثقافة الإسلامية المكان الأعلى فى نفوس أبناء هذه البلاد، مما هال أحد المفكرين الأسبان، فكتب يقول:

«إن أرباب الفطنة والتذوق ـ سرهم رنين الأدب العربي، فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وأنهم يعجبون بشعر العرب، وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح، فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل غير رجال الدين. إلى أن يقول... إن الجيل الناشئ من المسيحيِّين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربى واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كتب العرب، ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان» (١).

ومن الأندلس سطع نور الحضارة الإسلامية على أوربا، فأنارت أمامها الطريق إلى الحضارة الأوربية التى تمت وتطورت فغزت آفاق الفضاء.

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ يونيو سنة ١٩٧٠، تصدرها وزارة الأوقاف ـ الكويت.

(١) الإسلام والمستشرقون: الأستاذ زكريا هاشم ص ١٧: طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥م.

ولما ضعف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها تطلع الاستعمار باسم هذا الحضارة إلى السيطرة على بلادهم، واغتصاب ثرواتهم، وتبديد ما لديهم من قيم، وسلب ما بقى لهم من تراث.

على أن التراث الإسلامي، وهو أثمن ما تملكه الأمة الإسلامية والعربية، لم ينج من خطر هذا الاستعمار، بل إن عدّة مؤامرات حيكت حوله، من أجل جمعه والاستيلاء عليه، بأى ثمن، وبأية طريقة، ليفقد المسلمون هذا التراث الذى يعتزون به من ناحية، وليقدمه لهم المستشرقون بعد ذلك مشوها من ناحية أخري، ليكون وسيلة تضليل تشكك المسلمين فى هذا التراث لينقطع الخيط الذى يربط الأمة الإسلامية بماضيها التليد، وأمجادها السالفة، فتعيش بلا تاريخ، وتحيا بلا ماض، ومن ثم تهتز ثقتها بنفسها، فتكون كالشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وقد عثر فى مكتبة (دير الشوير) بلبنان على وثائق تثبت هذه الحقيقة، ومن هذه الوثائق الوثيقة التى تنص على أنه (فى سنة ١٦٧١م أرسل عالى الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية)(١).

أليست هذه الوثيقة تثبت فى صراحة ووضوح تآمر الاستعمار الأوربى منذ القرن السابع عشر على تراثنا لتبديده، أو تشويهه، أو مسخه؟ واذا فقدت الأمة تراثها، فقدت أغلى ما تملك، بل فقدت نفسها، ومسحت وجودها من التاريخ.

ولاشك أن تراثنا الإسلامى والعربى مصدره الأول القرآن الكريم، فهو الينبوع الذى استقت منه المعارف والعلوم ما أمدها بالحياة، وما بعث فيها الحركة والازدهار.

وهذا القرآن الكريم هو الخطر الأكبر فى وجه الاستعمار، فما دام المسلمون يحافظون على القرآن حفظا وعلما وعملا فإن مطامحهم تتحطم على صخرته العاتية، لأنه قوة تعمل عملها فى النفوس، فتحول الضعف إلى قوة، والعجز إلى حركة، واليأس إلى أمل: وصدق الله العظيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(٢).

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٢١.
(٢) الحشر: ٢١.

من أجل ذلك صاح (فلا دستون رئيس الوزارة البريطانية، وبيده القرآن الكريم فى مجلس العموم البريطانى فى عهد الملكة فكتوريا وهو يقول: (ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم).

لهذا فقد أخذ المستشرقون على عاتقهم التشكيك فى هذا القرآن الكريم وذلك بترجمته، وباقامة الدراسات فى مجاله.

وحينما بدا لى أن أكتب فى هذا الموضوع، وعشت فى المراجع التى كتبت عن المستشرقين فى مجال الدراسات الإسلامية راعنى هذا المجهود الضخم الذى بذل فى ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللغات الأوروبية منذ سنة ١١٤٣م حيث ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم باللاتينية على يد المستشرق (روبرت أو تشتر) إلى يومنا هذا، وراعنى أكثر هذا السيل المتدفق من الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم، أقول: لقد تملكتنى الدهشة، واستبد بى الألم، كيف جندت هذه النفوس لتحمل هذا العبء الثقيل؟ وما السر وراء هذه الجهود؟ ولماذا وقف علماونا متجمدين أمام هذه الأعمال الضخمة، لِمَ لم تعرض؟ لم لم تنقد؟ لم لم تقم حولها الدراسات، إن الإسلام قوة ويخشى المستعمرون أن يجذب بقوته الكثير من أبناء جلدتهم، فحاول الكثير منهم أن يشوهوا هذا الإسلام فى مصدره الأول ودعامته الأولي، وذلك بإلاجهاز على كتاب الله.

ومن هؤلاء المستشرقين الذين حملوا معاول الهدم المؤرخ (برايس) الذى قال: (إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته).

ومن هؤلاء (لنز) الذى قال: (إن الإسلام قد يبقى إذا ترك لنفسه، أما إذا احتك بالمدينة الحديثة فإنه يموت لا محالة).

ومن هؤلاء (بيشون) الألمانى القائل: (إن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه لعدم موافقته روح التمدن) (١).

وانتشرت حركة الاستشراق فى أوربا وأمريكا، ومازالت فى نمو مستمر ومازالت المطابع،

(١) من مقدمة كتاب «المستشرقون والإسلام».

ودور النشر تخرج لنا الكثير من تراثنا العربى والإسلامى محققا بيد هؤلاء المستشرقين، وأن الكثير منه قدموه لنا ناقص التكوين أو مشوه الولادة، أو محشواً بالأباطيل.

والذى يدعو إلى العجب حقّا أن المثقفين العرب الذين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين عاشوا بأفكارهم، لم يحاولوا أن يجددوا، لم يحاولوا أن يردوا الحق إلى نصابه، بل كانوا مفتونين بآراء هؤلاء المستشرقين يرددونها من غير وعي، كأنها قرآن منزل لا يقبل النقاش أو الجدل.

فباسم حرية التفكير التى يدعونها تحطمت المقاييس، وأوشك التراث على الضياع مع أن حرية التفكير التى تقوم على المنطق، بعيدة عن الهوي، بريئة من النوايا السيئة لا تتعارض مع الإسلام، بل لا أبالغ إذا قلت: إنها مبدأ من مبادئه ودعامة من دعائمه، لأن الإسلام، أتاح للعقل الإنسانى هذه الحرية فى التفكير لأنه ابن الحياة، ومن حقه أن يتعرف عليها معرفة كاملة، وبهذه المعرفة يشتد عوده، ويتسع إدراكه، ومن ثم يستطيع أن يتطلع إلى آفاق أرحب وإلى مجالات أوسع بحيث لا يقف عند ظواهر الأشياء، وإنما يتعمق فى كنهها ليدرك أسرار الوجود، وحقيقة الحياة، وبذلك يساعد الإنسانية فى تقدمها وتطورها.

ولو سار المستشرقون فى بحوثهم ودراساتهم وراء هذه الغاية لأفادوا الإنسانية، وقدموا لها المصباح الذى ينيرلها دياجير الحياة، ولكن التعصب الأعمى وقف حائلا بين الكثير منهم وبين هذه الغاية، فكانت معظم أفكارهم حول الإسلام تحتاج إلى تصحيح أو تعديل حتى لا يقع ناشئة المثقفين فى حبائلها، فتلتوى فى نفوسهم وسائل التفكير.

وهذا الإنتاج الضخم فى مجال الدراسات القرآنية الذى أشرت إليه سابقا قد يجهله الكثير من المثقفين العرب مع أن الواجب يقضى أن نفهم حقيقة ماضينا وحاضرنا، وأن نقرأ ما يكتب لنا أو علينا.

من أجل ذلك أحب أن أضع بين يدى القارئ صورة لهذا المجهودات فى الدراسات القرآنية التى قام بها المستشرقون، وهى تتمثل فى أمرين هما:

(١) ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية.

(٢) الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم.

أولاً: ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية:

كانت أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينية: وقام بها المستشرق روبرت أوتشتر: فى عام ١١٤٣م وقد كان روبرت أسقفا فى أسبانيا، وتثقف بالثقافة العربية، واشتغل بالرياضة والفلك ثم صرف عنهما إلى ترجمة القرآن باللغة اللاتينية وقد استعان باثنين من العرب فى هذه البلاد.

اللغة الفرنسية:

وقد ترجم القرآن الكريم باللغة الفرنسية على يد جماعة من المستشرقين الفرنسيين أذكر من هؤلاء: الدكتور (ماردروس) وقد ولد فى القاهرة ١٨٦٨م، وتعلم فى مدرسة الآباء اليسوعيين وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية عام ١٩٢٦م.

= مونتيه: من أصل سويسري، وانتخب عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق منذ نشأته، وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية ١٩٢٩م، ونقلت الترجمة إلى اللغة الإيطالية فيما بعد.

= أو كتاف بل: ولد فى الجزائر حيث تلقى علومه هناك، وعين مديرا لمعهد الدراسات العليا، وقد اشترك مع محمد التيجانى فى ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية.

= بلا شر: تلقى دروسه الثانوية فى الدار البيضاء، وتخرج بالعربية من كلية الآداب بالجزائر.

ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية فى ثلاثة أجزاء طبع باريس ١٩٥٢م.

اللغة الأيطالية:

ومن المستشرقين الايطاليين الذين نقلوا القرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية: = الأب ماراتش: وقد ولد فى ضاحية (لوكا) بايطاليا، وتعلم العربية، وترجم القرآن الكريم إلى الإيطالية ترجمة حرفية سنة ١٦٩١م.

اللغة الإنجليزية:

ومن المستشرقين الإنجليز الذين ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية: (ج. رودويل) ترجم القرآن الكريم فى ٥٦٢ صفحة طبع لندن ١٨٧٦م.

ادوارد هنرى بالمر: ترجم القرآن الكريم سنة ١٨٨٠م طبع أكسفورد.

جورج سيل: ترجم القرآن الكريم فى ٤٧٠ صفحة ١٨٩٢م.

يقول الأستاذ نجيب عفيفي: «وقد نجح فى ترجمته فذكرها فولتير فى القاموس الفلسفي، وأعيد طبعها مرارا، إلا أنها اشتملت على شروح وحواش، ومقدمة مسهبة هى فى الحقيقة بمثابة مقالة إضافية عن الدين الإسلامى عامة حشاها بالإفك، واللغو، والتجريح وقد نقلها إلى العربية ابن الهاشم العربى ١٩١٣م طبع القاهرة» (١).

ما رمادوك وليم بكثول: ترجم معانى القرآن الكريم سنة ١٩٣٠م قصد بعدها مصر لمراجعة ترجمته مع بعض العلماء، وطبعت طبعة ثالثة فى ٦٩٣ صفحة طبع لندن ١٩٦٢م.

ريتشارد بل: ترجم القرآن الكريم سنة ١٩٤١م وكان جل غرضه من هذه الترجمة تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبى لها.

اللغة الهولندية:

ومن المستشرقين الهولانديين كرامز.

ترجم القرآن إلى الهولندية ١٩٥٦ طبع أمستردام بروكسل.

اللغة الألمانية:

ومن المستشرقين الألمان:

فردريخ شواللى: وهو تلميذ المستشرق نولدكه، وقد أعاد طبع تاريخ النص القرآنى لنولدكه بعد تحقيقه، والتعليق عليه فى مجلدين طبع (ليزيج ١٩٠٩ ـ ١٩١٩).

---

(١) المستشرقون: نجيب عفيفى جـ ٢ ص ٤٧١.

نولدكه: أشهر آثاره: أصل وتركيب سور القرآن طبع ١٨٥٦م ثم أعاد النظر فيها وترجمها إلى الألمانية ونشرها بعنوان: تاريخ النص القرآنى سنة ١٨٦٠م.

اللغة الدانماركية

يدرسين: ندب فى عام ١٩١٦ إلى جامعة كوبنهاجن محاضرا، فترجم القرآن الكريم إلى الدانمركية، طبع استوكهولم ١٩١٧م.

ثانيا: الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم.

باللغة الفرنسية:

(توافق القرآن والانجيل) بحث نشره المستشرق يوستل الذى ولد فى مدينة بارنتون من أعمال نورمندى ونشر سنة ١٥٤٣م.

(السامريون فى القرآن) بحث للمستشرق جوزيف هاليفى من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بالسوربون ونشر بحثه فى المجلة الآسيوية ١٩٠٨م.

(وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبى الصلت) بحث للمستشرق الفرنسى هيارنافه، وقد نشر بحثه سنة ١٩٠٤م.

(بحث عن القرآن الكريم) للمستشرق البارون كارادى فو وقد نشر بحثه ١٨٩٨م.

(دراسة آية من القرآن الكريم) للمستشرق جيم جريفو وقد نشر بحثة ١٩١٤م فى مجلة الشرق المسيحى.

(القنديل والزيت فى القرآن) للمستشرق الفرنسى كلرمون ـ جانو وقد نشر بحثه فى مجلة تاريخ الأديان ١٩٢٠م.

(النفس فى القرآن) للمستشرق بلاشر وقد نشر بحثه فى مجلة الساميات ١٩٤٨م.

باللغة الإنجليزية:

(سلك البيان فى مناقب القرآن) للمستشرق الإنجليزى بنريس وقد طبع فى لندن ١٨٧٣م.

(التطور التاريخى للقرآن) للمستشرق الإنجليزى كانون ادوارد سل وقد طبع فى مدراس ١٨٩٨م.

(الإعجاز فى القرآن الكريم) للمستشرق الإنجليزى روبسون وقد نشر ١٩٣٣م.

وقد نشر كارل فوللـيرس النمساوى أستاذ اللغات الشرقية بجامعة فينا بحثا بعنوان (القرآن بلهجة مكة الشعبية).

باللغة الألمانية:

(نجوم الفرقان فى أطراف القرآن) بحث للمستشرق الألمانى فلوجيل المولود فى ١٨٠٢م والمتوفى ١٨٧٠م.

(الكلمات الأجنبية فى القرآن) للمستشرق الألمانى فرانكيل وهى رسالته فى الدكتوراه. وقد ولد فى ١٨٥٥ ـ ١٩٠٩م.

(تفسير القرآن وترتيبه) للمستشرق هيرتوريج هير طبع ١٩٠٢م.

(حروف النفى فى القرآن الكريم) طبعت ١٩١١م، والطبعة الثانية بتوسع ١٩١٤م.

(معجم قراء القرآن وتراجمهم) طبع ١٩١٢م.

(تحقيق القراءات الشاذة فى كتاب المحتسب لابن جنى طبع ١٩٣٣م.

(كتاب مختصر القراءات) لابن خالويه طبع ١٩٣٣م.

وهذا الانتاج للمستشرق الألمانى برجستر اسر وبعض الكتب المحققة من التراث، فقد طبعت باللغة العربية.

(كتب تفاسير القرآن) للمستشرق الألمانى زايبولد المولود ١٨٥٩م والمتوفى ١٩٢١م.

(التوراة فى القرآن) للمستشرق الألمانى فايل طبع ١٨٣٥م.

(مذهب الطبيعة الواحدة النصرانى فى القرآن) للمستشرق بومشتارك.

وله كتاب (النصرانية واليهودية فى القرآن) طبع ١٩٢٧م.

(مراجع القرآن وعلومه).

(رسالة فى تاريخ علم قراءة القرآن).

وهذان البحثان للمستشرق الألمانى بريتسل المولود عام ١٨٩٣ ـ المتوفى ١٩٤١م.

(الشرع فى القرآن) للمستشرق الألمانى ريجلين.

(دليل القرآن) للمستشرق الألمانى مالير.

(نفسير القرآن) للمستشرق الألمانى كومبرت وقد نشر ١٩٤٨م.

(الصلاة فى القرآن) للمستشرق الألمانى جوتيه.

(القرآن) بحث القى فى مؤتمر المستشرقين للمستشرق الألمانى أنطون شبيالير وقد ولد سنة ١٩١٠م [١].

وبعد، فإنّ الناظر إلى هذه الدراسات القرآنية يرى أن وراءها سموما دفينة، تقدم سهلة التناول باسم المناهج الحديثة فى الدراسات الإسلامية من ناحية، وباسم حرية الفكر من ناحية أخري.

لهذا، فإنّ الواجب يقضى أن ننظر إلى تراثنا الذى مسته يد المستشرقين نظرة واعية فيها الكثير من اليقظة، وفيها التعمق الذى يكشف ما وراء السطور، فما وافق قيمنا، وسار فى درب ثقافتنا الإسلامية قبلناه، وما حاد عن السنن وركب الشطط. ولاذ بالانحراف رفضناه، وفضحناه، وهناك جوانب فكرية أثارها المستشرقون فى مجال الدراسات القرآنية استطعت أن أبين زيفها، وألمس عوارها، فإلى بحث قادم لعرض هذه الجوانب، والرد عليها إن شاء الله، تلبية لقول الله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

***

(١) الذى أعاننى فى جمع هذه الدراسات من بين السطور الكتب الآتية:

أ ـ المستشرقون: نجيب عفيفى ط ثالثة ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

ب ـ المنتقى من دراسات المستشرقين: الدكتور صلاح الدين المنجد ـ طبع القاهرة ١٩٥٥م.

جـ ـ المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.